

# سُورَةُ الْإِخْلَاصِ

مكية .. وآياتها أربع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

( قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ 1 اللَّهُ الصَّمَدُ 2 لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ 3 وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ 4 )

\* \* \*

هذه السورة الصغيرة تعدل ثلث القرآن كما جاء في الروايات الصحيحة . قال البخاري : حدثنا إسماعيل : حدثني مالك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة ، عن أبيه ، عن أبي سعد ، أن رجلا سمع رجلا يقرأ : " **قل هو الله أحد** " يرددّها . فلما أصبح جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فذكر ذلك له - وكان الرجل يتقالها - فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : " والذي نفسي بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن " . .

وليس في هذا من غرابة . فإن الأحدية التي أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يعلنها : " **قل هو الله أحد** " . . هذه الأحدية عقيدة للضمير ، وتفسير للوجود ، ومنهج للحياة . . وقد تضمنت السورة - من ثم - عرض الخطوط الرئيسية في حقيقة الإسلام الكبيرة . .

" **قل هو الله أحد** " . . وهو لفظ أدق من لفظ " واحد " . . لأنه يضيف إلى معنى " واحد " أن لا شيء غيره معه . وأن ليس كمثل شيء .

إنها أحدية الوجود . . فليس هناك حقيقة إلا حقيقته . وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده . وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي ، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية .

وهي - من ثم - أحدية الفاعلية . فليس سواه فاعلا لشيء ، أو فاعلا في شيء ، في هذا الوجود أصلا .

وهذه عقيدة في الضمير وتفسير للوجود أيضا . .

فإذا استقر هذا التفسير ، ووضح هذا التصور ، خلص القلب من كل غاشية ومن كل شائبة ، ومن كل تعلق بغير هذه الذات الواحدة المتفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعلية .

خلص من التعلق بشيء من أشياء هذا الوجود - إن لم يخلص من الشعور بوجود شيء من الأشياء أصلا ! - فلا حقيقة لوجود إلا ذلك الوجود الإلهي . ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعلية الإرادة الإلهية . فعلام يتعلق القلب بما لا حقيقة لوجوده ولا لفاعليته !

وحين يخلص القلب من الشعور بغير الحقيقة الواحدة ، ومن التعلق بغير هذه الحقيقة . . فعندئذ يتحرر من جميع القيود ، وينطلق من كل الأوهام . يتحرر من الرغبة وهي أصل قيود كثيرة ، ويتحرر من الرهبة وهي أصل قيود كثيرة . وفيه يرغب وهو لا يفقد شيئا متى وجد الله ؟ ومن ذا يهرب ولا وجود لفاعلية إلا لله ؟

ومتى استقر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقة الله ، فستصبح رؤية هذه الحقيقة في كل وجود آخر انبثق عنها - وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله في كل شيء يراه . وورائها الدرجة التي لا يرى فيها شيئا في الكون إلا الله . لأنه لا حقيقة هناك يراها إلا حقيقة الله .

كذلك سيصبحه نفي فاعلية الأسباب . ورد كل شيء وكل حدث وكل حركة إلى السبب الأول الذي منه صدرت ، وبه تأثرت . . وهذه هي الحقيقة التي عني القرآن عناية كبيرة بتقريرها في التصور الإيماني . ومن ثم كان ينحي الأسباب الظاهرة دائما ويصل الأمور مباشرة بمشيئة الله : " **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** " . . " **وما النصر إلا من عند الله** " . . " **وما تشاءون إلا أن يشاء الله** " . . وغيرها كثير . .

وبتنحية الأسباب الظاهرة كلها ، ورد الأمر إلى مشيئة الله وحدها ، تنسكب في القلب الطمأنينة ، ويعرف المتجه الوحيد الذي يطلب عنده ما يرغب ، ويتقي عنده ما يهرب ، ويسكن تجاه الفواعل والمؤثرات والأسباب الظاهرة التي لا حقيقة لها ولا وجود !

وهذه هي مدارج الطريق التي حاولها المتصوفة ، فجذبهم إلى بعيد ! ذلك أن الإسلام يريد من الناس أن يسلكوا الطريق إلى هذه الحقيقة وهم يكابدون الحياة الواقعية بكل خصائصها ، ويحاولون الحياة البشرية ، والخلافة الأرضية بكل مقوماتها ، شاعرين مع هذا أن لا حقيقة إلا الله . وأن لا وجود إلا وجوده . وأن لا فاعلية إلا فاعليته . . ولا يريد طريقا غير هذا الطريق !

\* \* \*

من هنا ينبثق منهج كامل للحياة ، قائم على ذلك التفسير وما يشيعه في النفس من تصورات ومشاعر واتجاهات : منهج لعبادة الله وحده . الذي لا حقيقة لوجود إلا وجوده ، ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعليته ، ولا أثر لإرادة إلا إرادته .

ومنهج للاتجاه إلى الله وحده في الرغبة والرهبة . في السراء والضراء . في النعماء والبأساء . وإلا فما جدوى التوجه إلى غير موجود وجودا حقيقيا ، وإلى غير فاعل في الوجود أصلا ؟ !

ومنهج للتلقي عن الله وحده . تلقي العقيدة والتصور والقيم  
والموازن ، والشرائع والقوانين والأوضاع والنظم ، والآداب والتقاليد .  
فالتلقي لا يكون إلا عن الوجود الواحد والحقيقة المفردة في الواقع وفي  
الضمير .

ومنهج للتحرك والعمل لله وحده . . ابتغاء القرب من الحقيقة ،  
وتطلعا إلى الخلاص من الحواجز المعوقة والشوائب المضللة . سواء في  
قرارة النفس أو فيما حولها من الأشياء والنفوس . ومن بينها حاجز الذات ،  
وقيد الرغبة والرغبة لشيء من أشياء هذا الوجود !

ومنهج يربط - مع هذا - بين القلب البشري وبين كل موجود برباط  
الحب والأنس والتعاطف والتجاوب . فليس معنى الخلاص من قيودها هو  
كراهيتها والنفور منها والهروب من مزاولتها . . فكلها خارجة من يد الله ؛  
وكلها تستمد وجودها من وجوده ، وكلها تفيض عليها أنوار هذه الحقيقة .  
فكلها إذن حبيب ، إذ كلها هدية من الحبيب !

وهو منهج رفيق طليق . . الأرض فيه صغيرة ، والحياة الدنيا قصيرة ،  
ومتاع الحياة الدنيا زهيد ، والانطلاق من هذه الحواجز والشوائب غاية وأمنية  
.. ولكن الانطلاق عند الإسلام ليس معناه الاعتزال ولا الإهمال ، ولا  
الكراهية ولا الهروب . . إنما معناه المحاولة المستمرة ، والكفاح الدائم  
لترقية البشرية كلها ، وإطلاق الحياة البشرية جميعها . . ومن ثم فهي  
الخلافة والقيادة بكل أعبائهما ، مع التحرر والانطلاق بكل مقوماتهما . كما  
أسلفنا .

إن الخلاص عن طريق الصومعة سهل يسير . ولكن الإسلام لا يريد .  
لأن الخلافة في الأرض والقيادة للبشر طرف من المنهج الإلهي للخلاص .  
إنه طريق أشق ، ولكنه هو الذي يحقق إنسانية الإنسان . أي يحقق انتصار  
النفخة العلوية في كيانه . . وهذا هو الانطلاق . انطلاق الروح إلى مصدرها  
الإلهي ، وتحقيق حقيقتها العلوية . وهي تعمل في الميدان الذي اختاره لها  
خالقها الحكيم . .

\* \* \*

من أجل هذا كله كانت الدعوة الأولى قاصرة على تقرير حقيقة  
التوحيد بصورتها هذه في القلوب . لأن التوحيد في هذه الصورة عقيدة  
للضمير ، وتفسير للوجود ، ومنهج للحياة . وليس كلمة تقال باللسان أو  
حتى صورة تستقر في الضمير . إنما هو الأمر كله ، والدين كله ؛ وما بعده  
من تفصيلات وتفريعات لا يعدو أن يكون الثمرة الطبيعية لاستقرار هذه  
الحقيقة بهذه الصورة في القلوب .

والانحرافات التي أصابت أهل الكتاب من قبل ، والتي أفسدت  
عقائدهم وتصوراتهم وحياتهم ، نشأت أول ما نشأت عن انطماس صورة  
التوحيد الخالص . ثم تبع هذا الانطماس ما تبعه من سائر الانحرافات .

على أن الذي يمتاز به صورة التوحيد في العقيدة الإسلامية هو تعمقها للحياة كلها ، وقيام الحياة على أساسها ، واتخاذها قاعدة للمنهج العملي الواقعي في الحياة ، تبدو آثاره في التشريع كما تبدو في الاعتقاد سواء . وأول هذه الآثار أن تكون شريعة الله وحدها هي التي تحكم الحياة . فإذا تخلفت هذه الآثار فإن عقيدة التوحيد لا تكون قائمة ، فإنها لا تقوم إلا ومعها آثارها محققة في كل ركن من أركان الحياة . .

\* \* \*

ومعنى أن الله أحد : أنه الصمد . وأنه لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد . . ولكن القرآن يذكر هذه التفريعات لزيادة التقرير والإيضاح :

" **الله الصمد** " . . ومعنى الصمد اللغوي : السيد المقصود الذي لا يقضى أمر إلا بإذنه . والله - سبحانه - هو السيد الذي لا سيد غيره ، فهو أحد في ألوهيته والكل له عبيد . وهو المقصود وحده بالحاجات ، المجيب وحده لأصحاب الحاجات . وهو الذي يقضى في كل أمر بإذنه ، ولا يقضى أحد معه . . وهذه الصفة متحققة ابتداء من كونه الفرد الأحد .

" **لم يلد ولم يولد** " . . فحقيقة الله ثابتة أبدية أزلية ، لا تعتورها حال بعد حال . صفتها الكمال المطلق في جميع الأحوال . والولادة انبثاق وامتداد ، ووجود زائد بعد نقص أو عدم ، وهو على الله محال . ثم هي تقتضي زوجية . تقوم على التماثل . وهذه كذلك محال . ومن ثم فإن صفة " **أحد** " تتضمن نفي الوالد والولد . .

" **ولم يكن له كفوا أحد** " . . أي لم يوجد له مماثل أو مكافئ . لا في حقيقة الوجود ، ولا في حقيقة الفاعلية ، ولا في أية صفة من الصفات الذاتية . وهذا كذلك يتحقق بأنه " **أحد** " ولكن هذا تأكيد وتفصيل . . وهو نفي للعقيدة الثنائية التي تزعم أن الله هو إله الخير وأن للشِّر إلهها يعاكس الله - بزعمهم - ويعكس عليه أعماله الخيرة وينشر الفساد في الأرض . وأشهر العقائد الثنائية كانت عقيدة الفرس في إله النور وإله الظلام ، وكانت معروفة في جنوبي الجزيرة العربية حيث للفرس دولة وسلطان !!

\* \* \*

هذه السورة إثبات وتقرير لعقيدة التوحيد الإسلامية ، كما أن سورة الكافرون " نفي لأي تشابه أو التقاء بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك . . وكل منهما تعالج حقيقة التوحيد من وجه . وقد كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يستفتح يومه - في صلاة سنة الفجر - بالقراءة بهاتين السورتين . . وكان لهذا الافتتاح معناه ومغزاه . .



**الدّال على الخير كفاعله**

**موقعنا على الانترنت  
منبر التوحيد  
والجهاد**

<http://www.tawhed.ws>  
<http://www.almaqdesse.com>  
<http://www.alsunnah.info>